بين الألفين: الصفر الذي أكلنا نسخة السقوط الأبدي

23 پوليو 2025

فكر وتحليل

10 دقيقة قراءة

www.saudieinstein.com

بين الألفين: الصفر الذي أكلنا نسخة السقوط الأبدي



في تلك الليلة، لم نكن ننتظر نهاية العالم. كنا ننتظر عذراً للانتحار الجماعى.

11:47 مســاءً. 31 ديســمبر 1999. ســطح بنايــة مهجورة في بوسطن. أربعة أشباح تتظاهر بأنها بشر.

أنا: سعودي جاء يدرس الحاسوب، فتعلم كيف يبرمج نفسه ليبدو حياً.

أحمد: مصري يدخن ذكرياته. أمه ماتت وهو يكتب كوداً لشركة لا تعرف اسمه.

راجيف: هندي فقد آلهته الـ330 مليون، ولم يجد إلهاً واحداً يسمع صراخه.

لي: صينية تقطع معصميها بانتظام جـراح تجميل. "الألم الجسدى أرحم"، تقول.

الزجاجة في يدي فارغة. مثلي.

الحافة أمامي. مغرية. صادقة. نهائية.

"واحد منا على الأقل يجب أن يقفز الليلة،" قلت. "لماذا واحد فقط؟" سألت لى.

ضحكنا. ضحكة من يعرف النكتة قبل أن تُحكى. Y2K؟ كنا نعرف أنه خدعة. مثلنا. لكننا تظاهرنا بالخوف. تظاهرنا بالعمل على حلول.

في الحقيقة، كنا نكتب وصايانا في أكواد لن ىفهمها أحد.

} (if (year == 2000

;(self.terminate)

{ else }

;(self.pretendtolive)

أحمد كان يكتب رسائل لأمه الميتة فى ملفات

مخفية.

راجيف يبرمج آلهة رقمية ثم يحذفها واحداً تلو الآخر.

لي تصمم لعبة: "كم جرحاً يمكن أن يحتمـل الجسد قبل أن يستسلم؟"

أنا؟ كنت أحسب المسافة بين السطح والأرض. بالمللى ثانية.

كنا ننتظر الصفر. لم نكن نعلم أننا كنا الصفر.

أو ربما... ربما الصفر كان ينتظرنا.

.11:59

وقفنا على الحافة. أربعة أجساد. صف واحد. مثل أعواد الثقاب قبل أن تُشعل.

"إذا قفزنا الآن،" قال أحمد، "سنموت في القرن العشرين." "إذا انتظرنا دقيقة،" قال راجيف، "سنموت في القرن الواحد والعشرين."

"أي قرن تفضلون؟" سألت لي.

قبل أن نبدأ العد، نظرت لي إلينا. عيناها كانتا فارغتين بطريقة مختلفة.

قالت بصوت خالٍ من النبرة، كأنها تقرأ من كتاب تعليمات:

"أنا قفزت قبل أن نصل السطح. هذه مجرد نسخة احتياطية."

لم نفهم. أو تظاهرنا بعدم الفهم.

صمتنا

الريح بـاردة. تـدفعنا قليلاً للأمـام. كـأن الكـون يقول: "هيا، أنهوا هذه المهزلة."

عددنا: 10

عند 9، تذكرت وجه أمس.

عند 8، تساءلت: هل ستبكى؟

عند 7، أدركت أنها لن تعرف السبب.

عند 6، الفراغ بدأ يغني.

عند 5، أمسكنا أيدس بعض.

عند 4، شعرت بنبض راجيف. أم كان نبضي؟

عند 3، أغمضنا أعيننا.

عند 2، العالم توقف. أو نحن توقفنا عن العالم.

عند 1...

سـمعت صوتــاً داخليــاً يصــرخ: "اقفــز! الهاويــة أصدق من هذا الوجود المزيف!"

لكن صوتاً آخر، لا أعرف مصدره، همس: "من

قال إنك ستسقط؟ ربما ستبقى معلقاً، إلى الأبد، فى منتصف الهواء."

عند 0...

لم يقفز أحد.

فتحنا أعيننا. نظرنا لبعض.

للحظة، رأيت في عيونهم نفس الخيبة. نفس الارتياح. نفس الاشمئزاز من أنفسنا.

ثم انفجرنا ضاحكين.

ضحکنا حتی بکینا.

بكينا حتى سقطنا على ركبنا.

على حافة السطح. على حافة القرن. على حافة أنفسنا.

"حتى في الموت،" قالت لي، "نحن فاشلون." لكن الحقيقة أغرب: في تلك اللحظة، بين الضحك والبكاء، بين القفز وعدمه، أدركت أننا لم نكن نقف على حافة بناية. كنا نقف على حافة سؤال:

ماذا لو لم نكن نحن من يكتب هذا الكود... بل الكود هو من يكتبنا؟

لم يحدث شيء تلك الليلة. لا انهيار. لا نهاية. لا خلاص.

فقط استمرار ممل لكل شىء.

عدنا إلى غرفنا. إلى شاشاتنا. إلى أكاذيبنا.

لكن شيئاً ما تغير. أو ربما لم يتغير.

ربما فقط أدركنا أننا ميتون منذ زمن.

أحمد توقف عن التدخين. ليس لأنه أراد الحياة، بـل لأنـه أدرك أن المـوت البطـيء ليـس بطيئـاً كفاية. راجيف بدأ يصلي. لكل الآلهة. حتى التي لا يؤمن بها. "أحدهم قد يستجيب بالخطأ"، قال. لي؟ تـوقفت عـن جـرح نفسـها. بـدأت تجـرح

" الآخرين. بالكلمات. بالصمت. بالنظرات الفارغة.

"الندوب النفسية لا تحتاج لتفسير"، قالت. ثم أضافت شيئاً جعل دمي يتجمد:

"أتعلمون؟ في كل مرة أراكم، أراكم تسقطون. الثلاثة. بطيئاً. منذ 25 سنة وأنتم تسقطون." أنا؟ بدأت أكتب. هذا النص.

الذي لن ينتهي.

لأن النهايات للأحياء فقط.

أكتب هذا من مكان لا أعرفه. أو زمان لا أفهمه. في الذكرى 24 لتلك الليلة، لا أتذكر الوجوه بوضوح. فقط ضوءاً باهتاً على حافة سطح. وشعوراً لا أستطيع وصفه.

هل عشت؟ لا أدرس.

هل متّ؟ لا أدرس.

لكننى أتذكر شيئاً واحداً بوضوح مرعب:

الجاذبية لم تكن تعمل تلك الليلة. لا للأجساد...

ولا للمعنى... ولا للزمن.

ربما نحن ما زلنا هناك.

واقفون على الحافة.

في الثانية الأبدية بين 59:59:11 و00:00:00. ربما كل ما حدث بعدها مجرد احتمال. واحد من مليار احتمال.

في مليار كون موازِ.

2000: تخرجنا. احتفلنا بإنجاز لا معنى له.

2001: الأبراج سقطت. حسدناها.

2002: تفرقنا. وعدنا بالتواصل. كذبنا.

2010: أحمد مات. جلطة. أو انتحار بطيء. من يدري؟

آخر رسالة منه: "نجحت أخيراً. لن أرس 2011."

لكـن أحيانـاً، أحلـف أننـي أراه. فـي انعكـاس الشاشات. يبتسم.

2015: راجيف اختفى. قيل إنه في الهيمالايا. أو في مصحة. أو في قبر بلا شاهد.

آخر ما قاله لـي: "وجـدت الإلـه الـ331 مليـون. اسمه: اللاشىء."

أحياناً أتلقـــ رسائــل فارغـة مــن رقــم مجهــول. أعرف أنها منه. 2020: لـــي أرســلت لـــي صــورة. معصــماها. نظيفان. بلا ندوب.

تحتها كتبت: "محوت كل الأدلة. الآن يمكنني أن أموت بلا ماضٍ."

لم أسمع عنها بعدها.

لكن في كـل مـرة أرى انعكاسـي، أرى عينيهـا خلف عينيّ.

2024: أنــا مــا زلــت هنــا. أكتــب. متــزوج. أب. مستثمر. ميت.

كل ليلة، في 11:47، أصعد للسطح. أقف على نفس الحافة.

أعد من 10 إلى 0.

لكنني لا أقفز.

لأنني أدركت الحقيقة المرعبة: أنا قفزت بالفعل تلك الليلة. وما زلت أسقط. هــذهـ الحيــاة؟ مجــرد الثــواني الأخيــرة قبــل الارتطام. ممتدة إلى الأبد.

أو ربما... الحقيقة أغرب: ربما نحن لم نكن على السطح أصلاً. ربما كنا دائماً في القاع، نحلم بأننا في الأعلى. نحلم بالسـقوط لأنـه أرحـم مـن إدراك أننـا فـي الحضيض منذ البداية.

أحياناً، في الساعات الميتة، أسمع أصواتهم: أحمد يقول: "الموت أصدق شيء فعلته." راجيــف يهمــس: "الآلهــة مــاتت، لكنهــا تركــت

أشباحها."

لي تضحـك: "النـدوب الحقيقيـة هـي التـي لا تُرى."

وأنا أجيب الفراغ:

"نحن لم نكن ننتظر نهاية العالم. كنا ننتظر شجاعة لإنهاء أنفسنا. لم تأت. فعاقبنا الكون بالاستمرار."

لكن مؤخراً، بدأت أسمع صوتـاً رابعـاً. لا أعـرف صاحبه.

یقــول: "مــاذا لــو کــان الکــون ینتظــر منکــم أن تکملوا ما بدأتموه؟"

إذا وصلت إلى هنا، فأنت مثلي.

میت یقرأ کلمات میت آخر.

لا تبحث عن الأمل فى هذه السطور.

لا تبحث عن الحكمة أو العزاء.

هذا ليس نصاً.

هذا شاهد قبر لأناس دُفنوا واقفين.

Y2K لم يدمر الحواسيب.

دمر الوهم الأخير: أن شيئاً ما سيحدث.

لن يحدث شيء. never. jamais. أبداً.

فقط هذا الاستمرار اللعين. هذا الصفر الممتد.

هذا السقوط الأبدي.

لكن انتبه...

كلمـا قـرأت هــذه الكلمـات، تصـبح جــزءاً مــن القصة.

كلما فهمت، تقترب من الحافة.

كلما تعاطفت، تبدأ في السقوط.

في النهاية، كل شيء صفر. صفر حب. (الحب وهم كيميائي) صفر معنى. (المعنى اختراع للتحمل) صفر أمل. (الأمل أكذوبة القرن)

صـفر خلاص. (الخلاص للمؤمنيــن، ونحــن كفرنــا بكل شيء)

لكن...

في قلب الصفر، في عمق العدم، في نواة الفراغ...

هناك حقيقة واحدة:

نحن هنا. رغم كل شيء. بلا سبب. بلا غاية. بلا نهاية.

وهذا...

أكثر رعباً من أي نهاية كنا نتخيلها.

لأن هذا يعني أننا لسنا حتى أخطاء في الكود. نحن ميزة. Feature, not a bug

والكـون يسـتمتع بمشاهـدتنا ننتظـر نهايـة لـن تأتـي.

البارحـة، ابنـي الأكبر - الـذي يشبهنـي كثيـراً -صعد للسطح ووجدني. كانت الساعة 11:47.

وقف بجانبي. صامتاً. لدقيقة كاملة. ثم قال، بصوت يشبه صوتي عندما كنت في عمره:

"بابا... هل قفزت فعلاً تلك الليلة؟"

جمـدت. لأول مـرة منـذ 25 سـنة، شعـرت بـالبرد الحقيقــــ.

التفتُّ إليه. رأيت في عينيه نفس الفراغ الذي رأيته في مرآة بوسطن. نفس السؤال. نفس الحافة. نفس الصفر.

"لماذا تسأل؟" قلت، وصوتى يرتجف.

ابتسم. ابتسامة لا تليق بعمره.

"لأنني أحياناً... أشعر أنني أسقط. منذ ولدت وأنا أسقط."

صمتنا. الريح نفسها. الليل نفسه. الحافة نفسها. ثم قال:

"أعرف أصدقاء... يشعرون بنفس الشيء. كأننا ورثنا سقوطكم."

أردت أن أحتضنه. أن أكذب عليه. أن أقول له إن كل شيء سيكون بخير.

لكنني لم أستطع.

بدلاً من ذلك، قلت الحقيقة:

"نعم. قفزت. كلنا قفزنا. لكننا لم نصل بعد." نظر إلى طويلاً، ثم قال:

"أعرف. أشعر بك تسقط في داخلي كل يوم." ثم أضاف شيئاً جعلنى أرتعد:

"لكـن مـاذا لـو... مـاذا لـو كـان السـقوط هــو الطيران، ونحن فقط ننظر للاتجاه الخطأ؟" .

لم أجب. لم أعرف الجواب.

ما زلت لا أعرف.

وقفنا معاً على الحافة.

أب وابن. ماضٍ ومستقبل. سقوطان متوازيان. عند منتصف الليل، نزلنا معاً.

لم نقل شيئاً.

لكننـي عرفـت، فـي تلـك اللحظـة، أن اللعنـة انتقلت. وأن العد التنازلي... لم ينته. فقط انتقل لجيل جديد.

والآن، بينما أكتب هذه الكلمات الأخيرة، أسمع خطواته على السلم. صاعداً للسطح. الساعة 11:47.

أعرف أنه سيقف على نفس الحافة.

سيسأل نفس السؤال.

سيشعر بنفس الفراغ

وربما... ربما في ليلة ما...

سيجد الشجاعة التي لم نجدها.

أو الجنون.

أو الحكمة.

وسيقفز.

أو لن يقفز. وستستمر الدورة. أبدية. لا نهائية. صفر يلد صفراً يلد صفراً. حتى يأتى أحدهم... ويكسر الكود.

> النهاية (التي لن تأتي أبداً) #الوجودية #كتابةالعبث #منالأرشيف